خطبة صلاة الجمعة 15/7/2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(منزلة المحاسبة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18].

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: 30].

أخرج الإمام الترمذي بسنده عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل**» معنى دان نفسه حاسبها في الدنيا قبل أن يُحاسَب يوم القيامة.

عنوان خطبة اليوم: **منزلة محاسبة النفس**

أيها الإخوة:

في السير إلى الله تعالى يمر السالكون بمنازل، منزلةٍ تلو الأخرى، تجتمع حيناً وتتتابع حيناً آخر، ومن منازل السائرين ومدارج السالكين منزلة محاسبة النفس، وهي منزلة تصحب السالك منذ حلوله بها إلى منتهى الأجل، وخطبة اليوم عنها.

المحاسبة: هي قياس العبد ما يصدر منه من أقوال وأعمال ونوايا على أوامر الله ونواهيه، فإن وافقها حمد الله وإن خالفها عاد إليها.

أو هي قياس العبد ماله وما عليه فيستصحب ما له ويؤدي ما عليه ويستدرك ما فاته؛ لأنه مسافر سفرَ من لا يعود.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: 18] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدّم لغد، وذلك يتضمن محاسبةَ نفسه، والنظرَ في موافقته الشرع أو مخالفته، وهل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ [الحاقة: 18].

بين الحين والآخر يرسل لي إخوة كرام رسالة – كلٌّ يعبر بأسلوبه، ولكن المؤدى واحد –.

يقول أحدهم: إنه لم يكن قبل الآن ملتزماً في درب الله تعالى وقد فاته من الصلوات سنوات، واليوم وقد تاب الله عليه فماذا يعمل ليؤدي ما عليه؟

ويقول الآخر: قبل التزامه في درب الله تعالى اختلس من أناسٍ أموالاً، واليوم بعد إقباله على الله كيف له أن يعيد هذه الحقوق إلى أصحابها؟

ويقول الثالث: قبل التزامه وشمَ عضدَه وشماً كبيراً، واليوم بعد التزامه علم حرمة الوشم فهل تصح طهارته وصلاته به وهل يجب عليه إزالته؟

ويقول الرابع: لقد فاتته أيام عشر ذي الحجة فلم يلتفت فيها لطاعة فهل يستطيع أن يتدراك ما مضى، أو فاته رمضان الماضي فلم يجتهد فيه ببر فهل يستطيع تعويض ما فات؟

وغيرها من الأسئلة المشابهة.

أما الأول فإنه يقضي مع كل صلاة جديدة صلاة قديمة حتى يؤدي ما عليه، وأما الثاني فيعيد المال إلى صاحبه سراً أو جهراً، وأما الثالث فطهارته وصلاته مع الوشم صحيحة وإن استطاع إزالته من دون إضرار بنفسه فعل وإلا فلا حرج عليه، وأما الرابع فإن الإقبال على الله تعالى ميسور في كل حين ومن صدق في الطلب ولجَّ وَلَجَ، ومن أدمن قرع الباب فيوشك أن يفتح له.

وبعيداً عن الإجابات فهذه الأسئلة تدل على أن هؤلاء الإخوة جميعاً لما تابوا وأنابوا إلى ربهم بدؤوا يحاسبون أنفسهم، وفي هذا دليل من الواقع بأن من صح سيره إلى الله تعالى فإنه يحاسب نفسه، فإن كانت أعماله وأقواله ونواياه موافقة للشرع حمد الله وإن كانت مخالفة صححها.

فمحاسبة النفس دليل على صحة السير وهي من أول منازل السائرين.

عن ميمون ابن مِهران قال: لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، حتى يعلم من أين مطعمه؟ ومن أين ملبسه؟ ومن أين مشربه؟ أمن حل ذلك أم من حرام؟

وقد عَرَف الصالحون أنهم سيناقَشُون الحساب ويُطَالبون بمثاقيل الذر من الخير والشر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7، 8]، فتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا محاسبةُ النفس ومطالبتها بما عليها، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في يوم القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته، قال تعالى ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

ذكر أهل التربية الروحية أنواعاً لمحاسبة المرء نفسه:

– أحدها أن يقارن العبد بين ما يصدر منه من أقوال وأفعال ونوايا وبين وأوامر الله ونواهيه فإن وافقها حمد الله وإن خالفها صحح خطأه – كما سبق–.

– وثانيها أن يقارن العبد بين نعم الله عليه وجناياته بين يديه، فتتطامن بين يدي الله نفسُه ويرى تقصيرَه ويضاعف في الصالحات سيرَه.

نقلوا عن توبة بن الصمة وكان محاسباً لنفسه فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي قريب من اثنين وعشرين ألفَ يوم، فصرخ وقال يا ويلتي ألقى الملك باثنين وعشرين ألف ذنب، فكيف وفي كل يوم مئات الذنوب ثم خر مغشياً عليه.

وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد، ويتبين لك حقيقةُ النفس وصفاتُها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وأنت قبل هذه المحاسبة جاهل بحقيقة نفسك، وبربوبية فاطرها وخالقها.

وإذا أضفت إلى ذلك عد نعم الله عليك من سمع وبصر، وحس وفكر، وزرع ونَهَر، وماء وشجر، وشمس قمر.

ومن والدٍ وولد، وعافية ورغد، وقوة ومدد، وعدة وعَدَد.

ومن سنة وقرآن، ومسجد وإخوان، وسلامة فطرة وكمال خلقة وجمال صورة وحسن طلعة.

فإذا قايست بين كثرة النعم منه وكثرة الخطايا منك قلت بلسان الحال «**أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي**» وظهر لك أنه لولا فضل الله ورحمته ما زكت نفسك أبداً، ولولا هداه ما اهتدت إلى خير البتة.

– وثالث أنواع المحاسبة أن يقارن العبد بين حسناته وسيئاته، فيعلم بهذه المقايسة أيهما أكثر وأرجح قدرا وصفة.

ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: 6].

وقد كان بعض الصالحين إذا أصبح عليه الصباح حمل كيساً من الحصى فإن عمل خيراً وضع حصاة في جيبه الأيمن وإن فعل سوءاً وضع الحصاة في جيبه الأيسر فإذا أمسى المساء نفضهما وقايس بين الاثنين فإما أن يبيت شاكراً معترفاً لربه بفضله وإما أن يطوي مصلياً ذاكراً مستغفراً رجاء أن يغفر الله له تفريطه.

وقد رأيت شباباً صنعوا برامج العلم والذكر والفرائض والسنن والعمل وبر الوالدين وسجلوا على أنفسهم ما أدوه وما قصروا وحمدوا الله على الأداء واستغفروه على التقصير وحاولوا الاستدراك.

ونحوهم من كان يضع عدداً موجباً إن أحسن وسالباً إن أساء على دفتره الخاص فإذا أمسى المساء جمع السالب إلى الموجب فإن رجح الموجب شكر وإن رجح السالب بكى واعتبر.

أيها الإخوة:

هذه هي منزلة محاسبة النفس، وهذه ثلاثة أنواع من المحاسبة أن تقايس ما يصدر منك من قول أو فعل أو نية مع أوامر الله ونواهيه، وأن تقايس بين نعم الله عليك وجناياتك بين يديه، وأن تقايس بين حسناتك وسيئاتك.

والسعيد الموفق من حاسب نفسه بها جميعاً.

قال الحسن: المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبه.

وقال وهب بن منبه، قال: "مكتوب في حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يغفُل عن أربع ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يُخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمد؛ فإن في هذه الساعة عونا على تلك الساعات".

والحمد لله رب العالمين